

الإيثار

العناصر:

تعريف الإيثار

درجاته وأقسامه

فضائله

نماذج وصور من حياة السابقين.

التفصيل

الإيثار لغة:

الإيثار مصدر قولهم أثره عليه يؤثره إيثارا بمعنى فضله وقدمه وهو مأخوذ من مادة (أث ر) التي تدل على

تقديم الشيء

واصطلاحاً: قال القرطبي: الإيثارُ: هُوَ تَقْدِيمُ الْغَيْرِ عَلَى النَّفْسِ وَحُطُوطِهَا الدُّنْيَاوِيَّةَ، وَرَغْبَةُ فِي الْحُطُوطِ

الدُّنْيَاوِيَّةِ. وَذَلِكَ يَنْشَأُ عَنْ قُوَّةِ الْيَقِينِ، وَتَوْكِيدِ الْمَحَبَّةِ، وَالصَّبْرِ عَلَى الْمَشَقَّةِ. يُقَالُ: أَثَرْتُهُ بِكَذَا، أَيِ خَصَصْتُهُ بِهِ

وَفَضَّلْتُهُ. (١)

درجات الإيثار:

الدَّرَجَةُ الْأُولَى: أَنْ تُؤَثِّرَ الْخَلْقَ عَلَى نَفْسِكَ فِيمَا لَا يَحْرِمُ عَلَيْكَ دِينًا. .

يَعْنِي: أَنْ تُقَدِّمَهُمْ عَلَى نَفْسِكَ فِي مَصَالِحِهِمْ. مِثْلَ أَنْ تُطْعِمَهُمْ وَتَجُوعَ. وَتَكْسُوهُمْ وَتَعْرَى، وَتَسْقِيَهُمْ وَتَنْظُمًا،

بِحَيْثُ لَا يُؤَدِّي ذَلِكَ إِلَى ارْتِكَابِ إِتْلَافٍ لَا يَجُوزُ فِي الدِّينِ.

(١) تفسير القرطبي (١٨ / ٢٦).

فَكُلُّ سَبَبٍ يَعُودُ عَلَيْكَ بِصَلَاحِ قَلْبِكَ وَوَقْتِكَ وَحَالِكَ مَعَ اللَّهِ: فَلَا تُؤْثِرُ بِهِ أَحَدًا. فَإِنْ أَثَرْتَ بِهِ فَإِنَّمَا تُؤْثِرُ الشَّيْطَانَ عَلَى اللَّهِ، وَأَنْتَ لَا تَعْلَمُ.

وَلَا يُسْتَطَاعُ إِلَّا بِثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ: بِتَعْظِيمِ الْحُقُوقِ، وَمَقْتِ الشُّحِّ، وَالرَّغْبَةِ فِي مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ.

الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ: إِثَارُ رِضَا اللَّهِ عَلَى رِضَا غَيْرِهِ وَإِنْ عَظُمَتْ فِيهِ الْمِحْنُ. وَثِقَلَتْ فِيهِ الْمُؤْنُ، وَضَعُفَ عَنْهُ الطَّوْلُ وَالْبَدَنُ.

قال ابن القيم: إِثَارُ رِضَا اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى غَيْرِهِ: هُوَ أَنْ يُرِيدَ وَيَفْعَلَ مَا فِيهِ مَرَضَاتُهُ، وَلَوْ أَعْضَبَ الْخَلْقَ. وَهِيَ دَرَجَةُ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ.

وَإِنَّ الْمِحْنَةَ تَعْظُمُ فِيهِ أَوْ لَا، لِيَتَأَخَّرَ مَنْ لَيْسَ مِنْ أَهْلِهِ. فَإِذَا احْتَمَلَهَا وَتَقَدَّمَ انْقَلَبَتْ تِلْكَ الْمِحْنُ مِنْحًا. وَصَارَتْ تِلْكَ الْمُؤْنُ عَوْنًا. وَهَذَا مَعْرُوفٌ بِالتَّجْرِبَةِ الْخَاصَّةِ وَالْعَامَّةِ. فَإِنَّهُ مَا أَثَرَ عَبْدٌ مَرَضَاةَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى مَرَضَاةِ الْخَلْقِ، وَتَحَمَّلَ ثِقَلَ ذَلِكَ وَمُؤْنَتَهُ، وَصَبَرَ عَلَى مُحِبَّتِهِ: إِلَّا أَنْشَأَ اللَّهُ مِنْ تِلْكَ الْمِحْنَةِ وَالْمُؤْنَةِ نِعْمَةً وَمَسْرَةً، وَمَعُونَةً بِقَدْرِ مَا تَحَمَّلَ مِنْ مَرَضَاتِهِ. فَانْقَلَبَتْ مَخَافُهُ أَمَانًا، وَمَطَانُ عَطْبِهِ نَجَاةً، وَتَعَبُهُ رَاحَةً، وَمُؤْنَتُهُ مَعُونَةً، وَبَلِيَّتُهُ نِعْمَةً، وَمِحْنَتُهُ مِنْحَةً، وَسُخْطُهُ رِضًا. فَيَا حَيِّبَةَ الْمُتَخَلِّفِينَ، وَيَا ذِلَّةَ الْمُتَهَيِّبِينَ.

هَذَا، وَقَدْ جَرَتْ سُنَّةُ اللَّهِ - الَّتِي لَا تَبْدِيلَ لَهَا - أَنَّ مَنْ أَثَرَ مَرَضَاةَ الْخَلْقِ عَلَى مَرَضَاتِهِ: أَنْ يُسْخِطَ عَلَيْهِ مَنْ أَثَرَ رِضَاهُ، وَيُجَدِّدُهُ مِنْ جِهَتِهِ. وَيَجْعَلُ مُحِبَّتَهُ عَلَى يَدَيْهِ. فَيَعُودُ حَامِدُهُ دَامًا. وَمَنْ أَثَرَ مَرَضَاتَهُ سَاخِطًا. فَلَا عَلَى مَقْصُودِهِ مِنْهُمْ حَصَلَ، وَلَا إِلَى ثَوَابِ مَرَضَاةِ رَبِّهِ وَصَلَ. وَهَذَا أَعْجَزُ الْخَلْقِ وَأَحْمَقُهُمْ.

هَذَا مَعَ أَنَّ رِضَا الْخَلْقِ: لَا مَقْدُورٌ، وَلَا مَأْمُورٌ، وَلَا مَأْتُورٌ. فَهُوَ مُسْتَحِيلٌ. بَلْ لَا بُدَّ مِنْ سُخْطِهِمْ عَلَيْكَ. فَلَا تَنْ يَسْخَطُوا عَلَيْكَ وَتَقُورَ بِرِضَا اللَّهِ عَنْكَ أَحَبُّ إِلَيْكَ وَأَنْفَعُ لَكَ مِنْ أَنْ يَسْخَطُوا عَلَيْكَ وَاللَّهُ عَنْكَ غَيْرُ رَاضٍ. فَإِذَا كَانَ سُخْطُهُمْ لَا بُدَّ مِنْهُ - عَلَى التَّقْدِيرَيْنِ - فَاتِرُ سُخْطِهِمْ الَّذِي يُنَالُ بِهِ رِضَا اللَّهِ. فَإِنْ هُمْ رَضُوا عَنْكَ بَعْدَ

هَذَا، وَإِلَّا فَأَهْوَنُ شَيْءٍ رِضَا مَنْ لَا يَنْفَعُكَ رِضَاهُ، وَلَا يَضُرُّكَ سُخْطُهُ فِي دِينِكَ، وَلَا فِي إِيْمَانِكَ، وَلَا فِي آخِرَتِكَ. فَإِنْ ضَرَّكَ فِي أَمْرِ يَسِيرٍ فِي الدُّنْيَا فَمَضَرَّةٌ سُخْطِ اللَّهِ أَعْظَمُ وَأَعْظَمُ. وَخَاصَّةً الْعَقْلُ: احْتِمَالُ أَدْنَى الْمُفْسِدَيْنِ لِدَفْعِ أَعْلَاهُمَا. وَتَقْوِيَةُ أَدْنَى الْمُصْلِحَيْنِ لِتَحْصِيلِ أَعْلَاهُمَا. فَوَازِنُ بَعْقَلِكَ. ثُمَّ انظُرْ أَيَّ الْأَمْرَيْنِ خَيْرٌ فَأَثَرُهُ، وَأَيُّهُمَا شَرٌّ فَابْعُدْ عَنْهُ. فَهَذَا بُرْهَانٌ قَطْعِيٌّ صَرُورِيٌّ فِي إِثَارِ رِضَا اللَّهِ عَلَى رِضَا الْخَلْقِ.

هَذَا مَعَ أَنَّهُ إِذَا أَثَرَ رِضَا اللَّهِ كَفَاهُ اللَّهُ مُؤَنَّةَ غَضَبِ الْخَلْقِ. وَإِذَا أَثَرَ رِضَاهُمْ لَمْ يَكْفُوهُ مُؤَنَّةَ غَضَبِ اللَّهِ عَلَيْهِ.

قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: لِمُصَانَعَةِ وَجْهِ وَاحِدٍ أَيْسَرُ عَلَيْكَ مِنْ مُصَانَعَةِ وَجُوهِ كَثِيرَةٍ. إِنَّكَ إِذَا صَانَعْتَ ذَلِكَ الْوَجْهَ الْوَاحِدَ كَفَاكَ الْوُجُوهُ كُلَّهَا.

وَقَالَ الشَّافِعِيُّ رحمته الله: رِضَا النَّاسِ غَايَةٌ لَا تُدْرِكُ. فَعَلَيْكَ بِمَا فِيهِ صَلَاحٌ نَفْسِكَ فَالزَّمْهُ.

وَمَعْلُومٌ: أَنَّهُ لَا صَلَاحَ لِلنَّفْسِ إِلَّا بِإِثَارِ رِضَا رَبِّهَا وَمَوْلَاهَا عَلَى غَيْرِهِ.

ذكر ما يعين على هذه الدرجة من الإيثار

وَيُسْتَطَاعُ هَذَا بِثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ: بِطَيْبِ الْعُودِ. وَحُسْنِ الْإِسْلَامِ. وَقُوَّةِ الصَّبْرِ.

فَمِنْ الْمَعْلُومِ: أَنَّ الْمُؤَثِّرَ لِرِضَا اللَّهِ مُتَّصِدٌ لِمُعَادَاةِ الْخَلْقِ وَأَذَاهُمْ، وَسَعِيهِمْ فِي إِتْلَافِهِ وَلَا بُدَّ. هَذِهِ سُنَّةُ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ. وَإِلَّا فَمَا ذَنْبُ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ. وَالَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ، وَالْقَائِمِينَ بِدِينِ اللَّهِ، الذَّاكِرِينَ عَن كِتَابِهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ عِنْدَهُمْ؟

فَمَنْ أَثَرَ رِضَا اللَّهِ فَلَا بُدَّ أَنْ يُعَادِيَهُ رَدَالَةُ الْعَالَمِ وَسَقَطُهُمْ، وَعَرْنَاهُمْ وَجَهَاهُمْ، وَأَهْلُ الْبِدْعِ وَالْفُجُورِ مِنْهُمْ، وَأَهْلُ الرِّيَاسَاتِ الْبَاطِلَةِ، وَكُلُّ مَنْ يُخَالِفُ هَدْيَهُ هَدْيَهُ. فَمَا يُقَدِّمُ عَلَى مُعَادَاةِ هَؤُلَاءِ إِلَّا طَالِبُ الرُّجُوعِ إِلَى اللَّهِ، عَامِلٌ عَلَى سَمَاعِ خِطَابِ {يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ - ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً} [الفجر: ٢٧ - ٢٨] وَمَنْ

إِسْلَامُهُ صُلْبٌ كَامِلٌ لَا تُزَعِزُهُ الرِّجَالُ. وَلَا تُثْقِلُهُ الْجِبَالُ، وَمَنْ عَقَدَ عَزِيمَةَ صَبْرِهِ مُحْكَمًا لَا تَحُلُّهُ الْمِحْنُ وَالشَّدَائِدُ وَالْمَخَافُ.

قال ابن القيم: وَمَلَكَ ذَلِكَ أَمْرَانِ: الرَّهْدُ فِي الْحَيَاةِ وَالشَّيْءِ. فَمَا ضَعُفَ مَنْ ضَعُفَ، وَتَأَخَّرَ مَنْ تَأَخَّرَ إِلَّا بِحُبِّهِ لِلْحَيَاةِ وَالْبَقَاءِ، وَثَنَاءِ النَّاسِ عَلَيْهِ، وَنُفْرَتِهِ مِنْ ذَمِّهِمْ لَهُ. فَإِذَا زَهَدَ فِي هَذَيْنِ الشَّيْئَيْنِ، تَأَخَّرَتْ عَنْهُ الْعَوَارِضُ كُلُّهَا. وَانْعَمَسَ حَيْثُ دَخَلَ فِي الْعَسَاكِرِ.

وَمَلَكَ هَذَيْنِ الشَّيْئَيْنِ بِشَيْئَيْنِ: صِحَّةِ الْيَقِينِ. وَقُوَّةِ الْمَحَبَّةِ.

وَمَلَكَ هَذَيْنِ بِشَيْئَيْنِ أَيْضًا: بِصِدْقِ اللَّجْبِ وَالطَّلَبِ، وَالتَّصَدِّي لِلْأَسْبَابِ الْمُوصِلَةِ إِلَيْهِمَا.

فَالِي هَاهُنَا تَنْتَهِي مَعْرِفَةُ الْخَلْقِ وَقُدْرَتُهُمْ. وَالتَّوْفِيقُ بَعْدَ بَيْدٍ مِنْ أَرِمَّةِ الْأُمُورِ كُلِّهَا بِيَدِهِ {وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا - يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا} [الإنسان: ٣٠ - ٣١].

الدَّرَجَةُ الثَّلَاثَةُ: إِيْثَارُ إِيثَارِ اللَّهِ. يَعْنِي: أَنْ تَنْسَبَ إِيْثَارَكَ إِلَى اللَّهِ دُونَ نَفْسِكَ. وَأَنَّهُ هُوَ الَّذِي تَفَرَّدَ بِالْإِيثَارِ، لَا أَنْتَ. فَكَأَنَّكَ سَلَّمْتَ الْإِيثَارَ إِلَيْهِ. فَإِذَا أَثَرْتَ غَيْرَكَ بِشَيْءٍ فَإِنَّ الَّذِي أَثَرَهُ هُوَ الْحَقُّ، لَا أَنْتَ. فَهُوَ الْمُؤَثِّرُ حَقِيقَةً. إِذْ هُوَ الْمُعْطِي حَقِيقَةً.

ما يعين على هذه الدرجة من الإيثار:

التخلص من دعوى الملك فإن نسبة الإيثار إلى النفس دعوى الملك فإذا ادعى العبد: أنه مؤثر فقد ادعى ملك ما أثر به غيره. والملك في الحقيقة: إنما هو لله الذي له كل شيء. فإذا خرج العبد عن دعوى الملك فقد أثر

إِيثَارَ اللَّهِ - وَهُوَ إِعْطَاؤُهُ - عَلَى إِيثَارِ نَفْسِهِ. وَشَهِدَ أَنَّ اللَّهَ وَحْدَهُ هُوَ الْمُؤَثِّرُ بِمَلِكِهِ. وَأَمَّا مَنْ لَا مَلِكَ لَهُ: فَأَيُّ إِيثَارٍ لَهُ؟... (٢)

أقسام الإيثار:

أولاً: أقسامه من حيث تعلقه بالغير: ينقسم الإيثار من حيث تعلقه بالغير إلى قسمين:

القسم الأول: إيثار يتعلق بالخالق:

وهو أفضل أنواع الإيثار وأعلاها منزلة، وأرفعها قدراً... . وقد سبقت الإشارة إليه في الكلام عن درجات الإيثار.

ولهذا النوع من الإيثار علامات دالة عليه، وشواهد موضحة له، لا بد أن تظهر على مدعيه، وتتجلى في المتحلي به وهي علامتان:

إحداها: أن يفعل المرء كل ما يحبه الله تعالى ويأمر به، وإن كان مكروهاً إلى نفسه، ثقيلاً عليه.

الثاني: أن يترك ما يكرهه الله تعالى وينهى عنه، وإن كان محبباً إليه، تشتتبه نفسه، وترغب فيه؛ فبهذين الأمرين يصح مقام الإيثار.

القسم الثاني: إيثار يتعلق بالخلق:

وهذا هو النوع الثاني من أنواع الإيثار من حيث تعلقه بالخلق..

(٢) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (٢ / ٢٨٩).

شروط هذا النوع من الإيثار:

ذكر ابن القيم رحمه الله تعالى شروطاً للإيثار المتعلق بالمخلوقين تنقله من حيز المنع أو الكراهة إلى حيز الإباحة ولعلنا نجملها فيما يلي:

١ - أن لا يضيع على المؤثر وقته. ٢ - أن لا يتسبب في إفساد حاله. ٣ - أن لا يهضم له دينه.

٤ - ألا يكون سبباً في سد طريق خير على المؤثر.

وعليه فالإيثار المحمود كما قال ابن القيم رحمه الله هو: الإيثار بالدنيا لا بالوقت والدين وما يعود بصلاح القلب. (٣) وهذا هو ما نتحدث عن فضله والترغيب فيه.

فضائل الإيثار:

١- الإيثار سبب للفلاح

قال الله تبارك وتعالى: {وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شَحْنًا نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [الحشر: ٩]

قال الطبري: يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: وَهُوَ يَصِفُ الْأَنْصَارَ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ. مِنْ قَبْلِ الْمُهَاجِرِينَ: وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ. يَقُولُ: وَيُعْطُونَ الْمُهَاجِرِينَ أَمْوَالَهُمْ إِثَارًا لَهُمْ بِهَا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ. يَقُولُ: وَلَوْ كَانَ بِهِمْ حَاجَةٌ وَفَاقَةٌ إِلَىٰ مَا آثَرُوا بِهِ مِنْ أَمْوَالِهِمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ..

وَقَدْ ثَبَتَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: "أَفْضَلُ الصَّدَقَةِ جَهْدُ الْمُقِلِّ" (٤).

(٣) مدارج السالكين (٢/٢٨٤).

وَهَذَا الْمَقَامَ أَعْلَى مِنْ حَالِ الَّذِينَ وَصَفَ اللَّهُ بِقَوْلِهِ: {وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ} [الإنسان: ٨]. وَقَوْلُهُ: {وَأَتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ} [البقرة: ١٧٧].

فَإِنَّ هَؤُلَاءِ يَتَصَدَّقُونَ وَهُمْ يُحِبُّونَ مَا تَصَدَّقُوا بِهِ، وَقَدْ لَا يَكُونُ لَهُمْ حَاجَةٌ إِلَيْهِ وَلَا ضَرُورَةٌ بِهِ، وَهَؤُلَاءِ آثَرُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ مَعَ خِصَاصَتِهِمْ وَحَاجَتِهِمْ إِلَى مَا أَنْفَقُوهُ. وَمِنْ هَذَا الْمَقَامِ تَصَدَّقَ الصَّدِيقُ، ﷺ، بِجَمِيعِ مَالِهِ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "مَا أَبْقَيْتَ لِأَهْلِكَ؟". فَقَالَ: أَبْقَيْتُ لَهُمُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ^(٥). وَهَذَا الْمَاءُ الَّذِي عُرِضَ عَلَى عِكْرِمَةَ وَأَصْحَابِهِ يَوْمَ الْيَرْمُوكِ، فَكُلُّ مَنْهُمْ يَأْمُرُ بِدَفْعِهِ إِلَى صَاحِبِهِ، وَهُوَ جَرِيحٌ مُثْقَلٌ أَحْوَجُ مَا يَكُونُ إِلَى الْمَاءِ، فَرَدَهُ الْآخِرَ إِلَى الثَّلَاثِ، فَمَا وَصَلَ إِلَى الثَّلَاثِ حَتَّى مَاتُوا عَنْ آخِرِهِمْ وَلَمْ يَشْرَبْهُ أَحَدٌ مِنْهُمْ، ﷺ وَأَرْضَاهُمْ.

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: أَتَى رَجُلٌ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَصَابَنِي الْجَهْدُ، فَأَرْسَلَ إِلَيَّ نِسَائِهِ فَلَمْ يَجِدْ عِنْدَهُنَّ شَيْئًا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "أَلَا رَجُلٌ يُضَيِّفُ هَذَا اللَّيْلَةَ، رَحِمَهُ اللَّهُ؟". فَقَامَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ فَقَالَ: أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ. فَذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ فَقَالَ لِامْرَأَتِهِ: ضَيِّفِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَا تَدْخِرِيهِ شَيْئًا. فَقَالَتْ: وَاللَّهِ مَا عِنْدِي إِلَّا قَوْتُ الصَّبِيَّةِ. قَالَ: فَإِذَا أَرَادَ الصَّبِيَّةُ الْعِشَاءَ فَتَوَمِّمِيهِمْ وَتَعَالَيْ فَاطْفِي السَّرَّاجَ وَنَطْوِي بُطُونَنَا اللَّيْلَةَ. فَفَعَلْتُ، ثُمَّ عَدَا الرَّجُلُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: "لَقَدْ عَجَبَ اللَّهُ، عَزَّ وَجَلَّ - أَوْ: ضَحِكَ - مِنْ فُلَانٍ وَفُلَانَةٍ"^(٦). وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: {وَيُؤْتِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ}.

وَقَوْلُهُ: {وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} أَي: مَنْ سَلِمَ مِنَ الشُّحِّ فَقَدْ أَفْلَحَ وَأَنْجَحَ.

فظهر بهذا أن من ثمرات الإيثار علاج الشح وكم في التخلص من الشح من فوائد

(٤) سنن أبي داود (٦٩ / ٢) ح (١٤٤٩). و صححه الألباني.

(٥) سنن أبي داود (١٢٩ / ٢) ح (١٦٧٨) وحسنه الألباني.

(٦) صحيح البخاري (١٤٨ / ٦) ح (٤٨٨٩).

وَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: "إِيَّاكُمْ وَالظُّلْمَ، فَإِنَّ الظُّلْمَ ظَلَمَاتُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَاتَّقُوا الشَّحَّ، فَإِنَّ الشَّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، حَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ وَاسْتَحَلُّوا مَحَارِمَهُمْ" (٧).

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "اتَّقُوا الظُّلْمَ؛ فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَاتَّقُوا الفُحْشَ، فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الفُحْشَ وَلَا التَّفَحُّشَ، وَإِيَّاكُمْ وَالشَّحَّ؛ فَإِنَّهُ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، أَمَرَهُمْ بِالظُّلْمِ فَظَلَمُوا، وَأَمَرَهُمْ بِالْفُجُورِ فَفَجَرُوا، وَأَمَرَهُمْ بِالْقَطِيعَةِ فَفَقَطَعُوا" (٨). (٩)

٢- سبب لنيل البر:

قال الله تعالى: {لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ} [آل عمران: ٩٢]. قَالَ مُجَاهِدٌ: وَهِيَ مِثْلُ قَوْلِهِ {ص: ٢٥٦} {وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا} [الإنسان: ٨] إِلَى آخِرِ الْآيَةِ، وَمِثْلُ قَوْلِهِ {وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ} [الحشر: ٩] (١٠)

يقول السعدي: يعني: لن تنالوا وتدرکوا البر، الذي هو اسم جامع للخيرات، وهو الطريق الموصل إلى الجنة، حتى تنفقوا مما تحبون، من أطيب أموالكم وأزكاها. فإن النفقة من الطيب المحبوب للنفوس، من أكبر الأدلة على ساحة النفس، واتصافها بمكارم الأخلاق، ورحمتها ورقتها، ومن أدل الدلائل على محبة الله، وتقديم محبته على محبة الأموال، التي جبلت النفوس على قوة التعلق بها.

وإذا عرفنا هذا فلنعرف حينئذ كيف كان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يمتثلون لمثل هذا الآيات

(٧) صحيح مسلم (٤/ ١٩٩٦) ح (٢٥٧٨)

(٨) مسند أحمد (٦٤٨٧) وقال الألباني في السلسلة الصحيحة (٢/ ٥١٤): إسناده صحيح.

(٩) تفسير ابن كثير (٨/ ٧٠).

(١٠) تفسير مجاهد (ص: ٢٥٥).

عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: كَانَ أَبُو طَلْحَةَ أَكْثَرَ الْأَنْصَارِ بِالْمَدِينَةِ مَالًا مِنْ نَخْلِ، وَكَانَ أَحَبَّ أَمْوَالِهِ إِلَيْهِ بَيْرُحَاءَ، وَكَانَتْ مُسْتَقْبَلَةَ الْمَسْجِدِ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدْخُلُهَا وَيَشْرَبُ مِنْ مَاءٍ فِيهَا طَيِّبٍ، قَالَ أَنَسُ: فَلَمَّا أَنْزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: {لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ} [آل عمران: ٩٢] قَامَ أَبُو طَلْحَةَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُولُ: {لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ} [آل عمران: ٩٢] وَإِنَّ أَحَبَّ أَمْوَالِي إِلَيَّ بَيْرُحَاءَ، وَإِنَّهَا صَدَقَةٌ لِلَّهِ، أَرْجُو بِرَّهَا وَدُخْرَهَا عِنْدَ اللَّهِ، فَضَعَهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ حَيْثُ أَرَاكَ اللَّهُ، قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "بِخْ، ذَلِكَ مَالٌ رَابِحٌ، ذَلِكَ مَالٌ رَابِحٌ، وَقَدْ سَمِعْتُ مَا قُلْتَ، وَإِنِّي أَرَى أَنْ تَجْعَلَهَا فِي الْأَقْرَبِينَ" فَقَالَ أَبُو طَلْحَةَ: أَفَعَلُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَسَمَّهَا أَبُو طَلْحَةَ فِي أَقَارِبِهِ وَبَنِي عَمِّهِ، تَابَعَهُ رَوْحٌ، وَقَالَ يَحْيَى بْنُ يَحْيَى، وَإِسْمَاعِيلُ: عَنْ مَالِكٍ "رَابِحٌ".^(١١)

٣- دليل على صدق الإيمان وتقوى الله تعالى

قال تبارك وتعالى: {لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُتُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ} [البقرة: ١٧٧]

فبين الله تبارك وتعالى أن من البر بعد الإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتب والأنبياء. . إطعام الطعام لمحتاجيه، وبذله لمريديه، مع حبه واشتهائه والرغبة فيه، وقد جاء به الله تعالى - أي إطعام الطعام - بعد أركان الإيمان مباشرة وفي ذلك دلالة على عظمته وعلو منزلته.

(١١) صحيح البخاري (٢/١١٩) ح (١٤٦١).

قال أبو جعفر: يعني تعالى ذكره بقوله: "وَأَتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ"، وَأَعْطَى مَالَهُ فِي حِينَ مَحَبَّتِهِ إِيَّاهُ، وَضَنَّ بِهِ، وَشَحَّ عَلَيْهِ. كما قال ابن مسعود في قوله (على حبه): هو أن تتصدق وأنت صحيح صحيح، تأمل البقاء، وتخشى الفقر (١٢)

وفي حديث أبي هريرة مرفوعاً: قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ الصَّدَقَةِ أَكْبَرُ أَجْرًا؟ قَالَ: "أَنْ تَصَدَّقَ وَأَنْتَ صَحِيحٌ شَحِيحٌ تُخْشَى الْفَقْرَ، وَتَأْمُلُ الْغِنَى، وَلَا تَمْهُلُ حَتَّى إِذَا بَلَغَتِ الْخُلُقُومَ، قُلْتَ لِفُلَانٍ كَذَا، وَلِفُلَانٍ كَذَا وَقَدْ كَانَ لِفُلَانٍ" (١٣)

٤- من صفات الأبرار الذين ينعمون في الجنان

قال تعالى: {عَيْنَا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا يُؤْفُونَ بِالْأَنْدَادِ وَيَجْأفُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا وَيُطْعَمُونَ السَّاعَةَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا} [الإنسان: ٦ - ٩]

قال السعدي: أي: وهم في حال يجوبون فيها المال والطعام، لكنهم قدموا محبة الله على محبة نفوسهم، ويتحرون في إطعامهم أولى الناس وأحوجهم {مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا}.

ويقصدون بإنفاقهم وإطعامهم وجه الله تعالى، ويقولون بلسان الحال: {إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا} أي: لا جزاء مالياً ولا ثناء قولياً. (١٤)

(١٢) جامع البيان ت شاكر (٣/ ٣٤٠).

(١٣) صحيح البخاري (٢/ ١١٠) ح (١٤١٩).

(١٤) تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: ٩٠١).

وقال أحمد بن عطاء أبو عبد الله اليربوعي، قال: نازعت عتبه الغلام نفسه لحما فقال لها: اندفعي عني إلى قابل فما زال يدافعها سبع سنين حتى إذا كان في السابعة أخذ دائقاً ونصف إفلاس فأتى بها صديقاً له من أصحاب عبد الواحد بن زيد حبازاً فقال: يا أخي إن نفسي تنازعني لحماً منذ سبع سنين وقد استحييت منها كم أعدتها وأخلفها فخذ لي رغيفين وقطعة من لحم بهذا الدائق والنصف فلما أتاه به إذا هو بصبي قال: يا فلان ألسنت أنت ابن فلان وقد مات أبوك قال: بلى قال: فجعل يبكي ويمسح رأسه وقال: فرة عيني من الدنيا أن تصير شهوتي في بطن هذا اليتيم فناوله ما كان معه ثم قرأ: {ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً} [الإنسان: ٨] (١٥)

٥- أهل الإيثار متعاونون في الشدة يجبهم النبي ﷺ .

فَعَنْ أَبِي بُرْدَةَ، عَنْ أَبِي مُوسَى، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "إِنَّ الْأَشْعَرِيِّينَ إِذَا أَرْمَلُوا فِي الْغَزْوِ، أَوْ قَلَّ طَعَامُ عِيَالِهِمْ بِالْمَدِينَةِ جَعَمُوا مَا كَانَ عِنْدَهُمْ فِي تَوْبٍ وَاحِدٍ، ثُمَّ اقْتَسَمُوهُ بَيْنَهُمْ فِي إِتَاءٍ وَاحِدٍ بِالسَّوِيَّةِ، فَهُمْ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُمْ" (١٦)

وقال أبو العباس القرطبي: (هذا الحديث يدل على أن الغالب على الأشعرين الإيثار، والمواساة عند الحاجة، كما دلّ الحديث المتقدم على أن الغالب عليهم القراءة والعبادة، فثبت لهم بشهادة رسول الله ﷺ: أنهم علماء عاملون، كرماء مؤثرون) (١٧)

٦- الإيثار والمواساة من أسباب نزول البركة

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "طَعَامُ الْإِثْمَيْنِ كَافِي الثَّلَاثَةِ، وَطَعَامُ الثَّلَاثَةِ

(١٥) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٦/ ٢٣٠).

(١٦) صحيح البخاري (٣/ ١٣٨) ح (٢٤٨٦).

(١٧) المفهم لما أشكل من صحيح مسلم (٢١/ ٢٠).

كَافِي الْأَرْبَعَةِ" (١٨). وفي لفظ لمسلم: "طَعَامُ الْوَاحِدِ يَكْفِي الْإِثْنَيْنِ، وَطَعَامُ الْإِثْنَيْنِ يَكْفِي الْأَرْبَعَةَ، وَطَعَامُ الْأَرْبَعَةِ يَكْفِي الثَّمَانِيَةَ" (١٩).

قال المهلب: والمراد بهذه الأحاديث الحض على المكارمة في الأكل والمواساة والإيثار على النفس الذي مدح الله به أصحاب نبيه، فقال: وَيُؤْتِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ [الحشر: ٩] (ولا يراد بها معنى التساوي في الأكل والتشاح؛ لأن قوله عليه السلام: (كافي الثلاثة) دليل على الأثرة التي كانوا يمتدحون بها والتقنع بالكفاية، وقد هم عمر بن الخطاب في سنة مجاعة أن يجعل مع كل أهل بيت مثلهم وقال: (لن يهلك أحد عن نصف قوته) (٢٠).

وإليك أخي الكريم بعض الصور المشرقة إضافة لما سبق:

عَنْ أَبِي حَازِمٍ قَالَ: سَمِعْتُ سَهْلَ بْنَ سَعْدٍ رضي الله عنه، قَالَ: جَاءَتِ امْرَأَةٌ بِبُرْدَةٍ، قَالَ: أَتَدْرُونَ مَا الْبُرْدَةُ؟ فَقِيلَ لَهُ: نَعَمْ، هِيَ الشَّمْلَةُ مَنْسُوجٌ فِي حَاشِيَتِهَا، قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي نَسَجْتُ هَذِهِ بِيَدِي أَكْسُوكَهَا، فَأَخَذَهَا النَّبِيُّ ﷺ مُحْتَاجًا إِلَيْهَا، فَخَرَجَ إِلَيْنَا وَإِنَّمَا إِزَارُهُ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، اكْسِنِيهَا. فَقَالَ: "نَعَمْ". فَجَلَسَ النَّبِيُّ ﷺ فِي الْمَجْلِسِ، ثُمَّ رَجَعَ، فَطَوَّأَهَا ثُمَّ أَرْسَلَ بِهَا إِلَيْهِ، فَقَالَ لَهُ الْقَوْمُ: مَا أَحْسَنْتَ، سَأَلْتَهَا إِيَّاهُ، لَقَدْ عَلِمْتَ أَنَّهُ لَا يَرُدُّ سَائِلًا، فَقَالَ الرَّجُلُ: وَاللَّهِ مَا سَأَلْتُهُ إِلَّا لِتَكُونَ كَفَنِي يَوْمَ أَمُوتُ، قَالَ سَهْلٌ: فَكَانَتْ كَفَنَهُ (٢١).

(١٨) صحيح البخاري (٥٣٩٢).

(١٩) صحيح مسلم (٢٠٥٩).

(٢٠) شرح صحيح البخاري لابن بطال (٤٧١/٩).

(٢١) - صحيح البخاري (٢٠٩٣).

وفي إيثار الأصار يقول أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: لَمَّا قَدِمَ الْمُهَاجِرُونَ الْمَدِينَةَ مِنْ مَكَّةَ، وَلَيْسَ بِأَيْدِيهِمْ - يَعْنِي شَيْئًا - وَكَانَتِ الْأَنْصَارُ أَهْلَ الْأَرْضِ وَالْعَقَارِ، فَقَاسَمَهُمُ الْأَنْصَارُ عَلَى أَنْ [ص:

١٦٦] يُعْطُوهُمْ ثَمَارَ أَمْوَالِهِمْ كُلِّ عَامٍ، وَيَكْفُوهُمْ الْعَمَلَ وَالْمُتُونَةَ (٢٢).

وانظر إلى هذا النوع من الإيثار فإنه منقطع النظير

قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ رضي الله عنه: لَمَّا قَدِمْنَا الْمَدِينَةَ آخَى رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم بَيْنِي وَبَيْنَ سَعْدِ بْنِ الرَّبِيعِ، فَقَالَ سَعْدُ بْنُ الرَّبِيعِ: إِنِّي أَكْثَرُ الْأَنْصَارِ مَالًا، فَأَقْسِمُ لَكَ نِصْفَ مَالِي، وَانظُرْ أَيَّ [ص: ٥٣] زَوْجَتِي هَوَيْتَ نَزَلْتُ لَكَ عَنْهَا، فَإِذَا حَلَّتْ، تَزَوَّجْتَهَا، قَالَ: فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ: لَا حَاجَةَ لِي فِي ذَلِكَ هَلْ مِنْ سُوقٍ فِيهِ تِجَارَةٌ؟ قَالَ: سُوقٌ فَيَنْقَاعِ، قَالَ: فَعَدَا إِلَيْهِ عَبْدُ الرَّحْمَنِ، فَأَتَى بِأَقِطٍ وَسَمْنٍ، قَالَ: ثُمَّ تَابَعَ الْغُدُوَّ، فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ عَلَيْهِ أَثَرُ صُفْرَةٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: "تَزَوَّجْتَ؟"، قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: "وَمَنْ؟"، قَالَ: امْرَأَةٌ مِنَ الْأَنْصَارِ، قَالَ: "كَمْ سَقْتِ؟"، قَالَ: زِنَةَ نَوَاةٍ مِنْ ذَهَبٍ - أَوْ نَوَاةٍ مِنْ ذَهَبٍ -، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: "أَوْلِمَ وَلَوْ بِشَاةٍ" (٢٣)

وهذا إيثار بالحياة في زمن الأثرة بحطام الدنيا البالي.

- قال ابن المبارك قال: أَخْبَرَنَا عُمَرُ بْنُ سَعِيدٍ بْنُ أَبِي حُسَيْنٍ، حَدَّثَنِي ابْنُ سَابِطٍ، أَوْ غَيْرُهُ أَنَّ أَبَا جَهْمٍ بْنَ حُدَيْفَةَ الْعَدَوِيَّ قَالَ: انْطَلَقْتُ يَوْمَ الْيَوْمِوكِ أَطْلُبُ ابْنَ عَمِّي، وَمَعِيَ شَنَّةٌ مِنْ مَاءٍ، وَإِنَاءٌ، فَقُلْتُ: "إِنْ كَانَ بِهِ رَمَقٌ سَقَيْتُهُ مِنَ الْمَاءِ، وَمَسَحْتُ بِهِ وَجْهَهُ، فَإِذَا أَنَا بِهِ يَنْشَعُ" فَقُلْتُ لَهُ: أَسْقِيكَ؟ فَأَشَارَ أَنْ نَعَمْ، فَإِذَا رَجُلٌ يَقُولُ: آه، فَأَشَارَ ابْنُ عَمِّي أَنْ انْطَلِقُ بِهِ إِلَيْهِ، فَإِذَا هُوَ هَشَامُ بْنُ الْعَاصِ أَحْوُ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ، فَأَتَيْتُهُ، فَقُلْتُ: أَسْقِيكَ؟ فَسَمِعَ آخَرَ يَقُولُ: آه،

(٢٢) صحيح البخاري (٣/١٦٥) ح (٢٦٣٠)

(٢٣) صحيح البخاري (٣/٥٢) ح (٢٠٤٨).

فَأَشَارَ هِشَامٌ أَنْ انْطَلِقَ بِهِ إِلَيْهِ، فَجِئْتُهُ فَإِذَا هُوَ قَدْ مَاتَ، ثُمَّ رَجَعْتُ إِلَى هِشَامٍ، فَإِذَا هُوَ قَدْ مَاتَ، ثُمَّ أَتَيْتُ ابْنَ عَمِّي،
فَإِذَا هُوَ قَدْ مَاتَ (٢٤)

والحمد لله رب العالمين